صحائف مطوية فى السياسة العربية

محاضرة عن الاسلام[1]

للاستاذ أحمد بك رمزى

فى يوم من أيام شهر يناير سنة ١٩٣٦ ، وكنت أشغل وظيفة قنصل مصر فى مدينة القدس ، زارنى وفد من هيئة جمعية الشبان المسيحية ، وقدم إلى برنامجا عن محاضرات العام ، وأشار الوفد إلى دعوة حضرة الأستاذ أحمد أمين بك لالقاء محاضرة عن الاسلام فى دار الجمعية .

وذكر لى أن العادة جرت عند تشريف أستاذ مصرى ذى مكانة خاصة ، أن يرأس الاجتماع قنصل مصر لتقديمه ، ولذلك عرض الوفد أن يكون الاجتماع برئاستى ، فاذا قبلت هذا وجهت الدعوة مع ذكر اسمى عليها ، وقد تمهلت فى القبول؛ فلما أس الوفد ترددى ، أطلعنى على نماذج من بطاقات الدعوات السابقة فقرأت عليها أسماء من تقدمونى فى هذا المنصب . هنا لم أجد ما يدعو إلى رفض هذه الرئاسة ، وهى بطبيعتها شرفية أوقل ذات طابع صورى ، وليس فيها ما يدعو إلى تحضير كلمة مطولة ؛ وانما يقتصر التقديم على القاء عبارات معينة معروفة . فوعدت الوفد بتلبية دعوته وخرج من عندى وقد اقتنعت من جهتى بأن المسألة قد انتهت ولم يعد هناك ما يبرر العودة اليها .

ولكن فى يوم الاثنين ٢٠ يناير سنة ١٩٣٦ وقد بدأت عملى كالعادة ، وجدت على مكتبى عدة برقيات فيها ما يأتى :

« ترؤسكم جمعية الشبان المسيحية التبشيرية الاستعمارية ، اساءة إلى عرب فلسطين ومسلميها ، الذين يرون فى هذه الجمعية خطراً يهدد كيانهم الدينى والسياسى » .

وقرأت فى برقية بامضاء الأستاذ عجاج نويهض ما يأتى :

« عرب فلسطين مقاطعون جمعية الشبان المسيحية منذ الاحتلال ، لكونها رائداً مقنعاً للاستعمار وللان لم يقف خطيب عربى مسلم على منبرها ، فخطبة الأستاذ أحمد أمين تحت رئاستكم ، جارح لكرامة مليون عربى ؛ فأحرار شباب العرب باسم الكرامة القومية يرجونكم العدول » .

ولم أكد أقرأ هذه البرقيات وما يحتويه بريد الصباح ، حتى جاء وقت المقابلات والزيارات ، فاذا فى مقدمة الحاضرين وفد عربى ، يتقدمه حضرة نبيه بك العظمة والأستاذ الصديق سامى السراج ، ولما انتظم المجلس ، بدأ الحديث عن المرض الزراعى الصناعى الذى كانت تقيمه الجمعية الزراعية الملكية فى ربيع سنة ١٩٣٦ ، وعن رغبة أهل فلسطين العرب فى زيارته ، لما له

١ — ألقيت فى جمعية الشبان المسيحية بالقدس عام ١٩٣٦ حين كان الكاتب القاضل قنصلا لمصر بفلسطين وشرق الأردن من ١٩٣٥ — ١٩٣٧ .

وخرجت من لدن صاحب الثراء العريض أجرر أذيال الخيبة والفشل وأحس مس الفاقة والضياع .

وجذبنى الأمل إلى رفاق سيدى وإلى ذوى قرابته ، أستعينهم واستعطفهم ، على واحداً يشفع لى لديه فيخفف من حكمه ويرد على عملى ، ولكننى وجدت قلوباً صماء لاتلين ، وعقولاً مغلقة لاتنفتح ، وأبواباً موصدة بأقفال من الكبرياء والترفع ، فرجعت إلى أهلى أحمل فى نفسى هم الندم . هم التعطل وهم الجوع .

وانطوت الأيام تنضج قمحى وفى النفس أمل وفى البطن شهوة ، فما راعنى إلا عمال صاحب العزبة يبكرون إلى حقلى — على حين غرة منى — يحصدون القمح ويحملونه إلى حيث يكون بيدراً صغيراً بين بيادر كبيرة . ووقفت أنظر وعالى بهم من يد فأدفع الظلم أو أظفر — عنوة — ببعض قمحى وهو جهد السنة وأمنية القلب .

ونظرت حولى فاذا الناس يهنئون من فرحة أيام الحصاد ويستمتعون بلذة الجنى ، إلا أنا ... غيا لقسوة الحرمان ! ويالمرارة الضيق !

ولا عجب — يابنى — فإن الانسانية حين تشهوى تسفل فتتضع فتنحط إلى أوضع مراتب الحيوانية !

فاضل محمود حبيب

من أهمية خاصة فى توطيد علاقتهم مع مصر الشقيقة الكبرى ، ثم انتقل الحديث وكأن لا صلة بين الموضوعين إلى المحاضرة ، التى أزمع الأستاذ أحمد أمين بك على القائها بجمعية الشبان المسيحية ، فكان من رأى الوفد المبادرة إلى الاعتذار عنها . أما أنا فقد أكدت للوفد أننى سأمكن أكبر عدد من أهل فلسطين من زيارة المعرض المصرى ، والتعرف إلى احوالهم المصريين . أما فيما يخص الاعتذار عن القاء المحاضرة ، فقد أبنت لهم بوضوح أننى قد وصفت كلمة تقديم المحاضر ، التى قرأتها بصوت مرتفع لجميع وسأقوم بالقائها على كل حال سواء حضر المحاضر أم اعتذر عن القاء محاضرته ، وكان مما قلته لحضراتهم وهم يذكرون ذلك جيدا « من أين تأتون لى بفرصة أخرى نتكلم عن الاسلام فى قاعة جمعية مسيحية ؟ أوجدوا لى هـــذه الفرصة فى مكان الجمعية كما تقولون أو أى مكان آخر ينطبق وصفها عليه من ناحية التبشير والاستعمار كما تقولون ، وأنا مستعد للرجوع وجعل الالقاء فى هذا المكان الذى تختارونه . اننى لا أنظر إلى المسألة من هذه الوجهة بالذات وإنما أقول ان فلسطين فى حاجة ماسة إلى جمع كل القوى التى يمكن أن تلتئم مع عمل القائمين بنهضة العرب وكفاحهم . ولا أشعر بأن هذه الجمعية ضدنا بل هى أمام تيار الصهيونية الجارف من مصلحتها أن تقف فى صف العرب ، ومن مصلحتنا أيضاً أن نجعلها فى صفنا ؛ وان لم تقف معنا الآن فسيجرفها التيار حتما ويقتلع جذورها معنا » .

وفى صباح يوم ٢٢ يناير قابلت المستر فرنس وكان يشغل وظيفة مدير المطبوعات لحكومة فلسطين ـ التقيت به فى ردهة فندق الملك داود فاخبرنى بانه أطلع على جرائد الصباح العربية وقال « انها قد خصصت جزءا كبيرا من أعمدتها للاحتجاج عليك وعلى الأستاذ أحمد أمين بك ، فماذا سيكون موقفكما أمام هـذه الحركة ؟ » . قلت « اننى قد أعددت كلمة لتقديم الأستاذ وسأحضر لالقائها فى الوعد المحدد كما اتفقنا ، والآن لا أعلم عن مجىء الأستاذ شيئاً . »

ولما ذهبت إلى دار القنصلية المصرية وجلست لعمل أعطيت لى مكالمة تليفونية مع حضرة الأستاذ أحمد أمين بك وكنت لم أتشرف بمعرفته بعد ، فقال لى « أنه حضر إلى القدس وهو يسعده أن يقابلنى » فلما سألته اين ينزل حتى أقوم بزيارته أولا ، لم يشأ أن يعلمنى بالمكان الذى نزل فيه وانما اخبرنى انه سيحضر لزيارتى فى الساعة الثالثة . ولما حضر فى الموعد قال لى « أعذرنى لما سببته لك من متاعب » .

قلت له « لا محل للاعتذار اذ اننى لم أنتب نفسى لشىء بعد »

وهنا التفت إلى وقال أنه مستعد لالقاء المحاضرة إذا كان الاستمرار فى مواجهة الحالة القائمة قد يسبب متاعب لى .

قلت له « انى مستعد لمواجهة عما تأتى به الأقدار ، وقد وضعنا فى هذا الموقف فعلينا أن نقبل به ونسلم ، وأن نواجه المتمنتين بالمنطق الذى يتفق مع الموقف » .

وهنا قلت له : « ترى لو دعى مبشر للخطابة عن المسيحية فى مسجد اسلامى ، أتظن أنه يترك هـذه الفرصة تفلت من بين يديه ؟ أقول هذا وقد اطلعت على ما نشر عن بعض المبشرين الذين اقحموا أنفسهم ومن غير دعوة سابقة ، فتقدموا للخطابة وسط الجماهير الاسلامية عند انتهائهم من صلاة الجمعة ، فكانوا فى موقفهم هذا دعاة يدعون إلى دينهم بطريقة لا يستسيغها العقل . ومع ذلك فنحن مدعوون ، فكيف نعتذر عن انتهاز فرصة مثل هـــذه ؟ أما من ناحيتى فقد عزمت على تقديمك بكلمة وسألقيها على كل حال » . فالتفت إلى وقال « نعم ليس من الرجولة فى شىء أن نعتذر الآن » قلت « اننى لن أتردد فى تقديمك ولكنى أن أعلمك بأن تقديمى سيأتى فى كلمة أطول من المعتاد . حتى أرد على هذه الحملة القائمة والتى أعتبرها هامة جداً فى نظرى بحيث إذا لم أوفق فى الرد عليها فلن أستطيع أن أقوم بأى عمل انشائى فى هذا الحقل العربى هنا » .

وافترقنا بعد أن أعلمنى أنه سيلقى كلمة فى نادى مدرســـة روضة المعارف الاسلامية (لا جمعية المقاصد الاسلامية كما ذكرها عزته فى الصفحة ٢٤٧ من كتاب « حياتى » فان جمعية المقاصد الاسلامية هى فى بيروت وليست بالقدس) وستقدمه هناك لجمهور المستمعين المسلمين حضرة الأستاذ حسن أبو رحاب .

***

وجاء موعد المحاضرة فى دار جمعية الشبان المسيحية ، وهى دار فخمة متسقة الأرجاء ـ أرجو أن يكون للمركز العام للشبان المسلمين مثل هذه الدار فى مدينة القاهرة ـ وقد خصص لالقاء

المحاضرة البناء الذى يشغله المسرح ، فامتلأت مقاعده بالحاضرين وتقدمت بالقاء كلمة لا أجد غضاضة فى نفسى من نشر بعض مقتطفات منها . وقد حدث فعلا أن الجرائد العربية التى وجهت اللوم الينا نشرت فى اعدادها الصادرة فى يوم الجمعة ٢٤ يناير وفى مقدمتها جريدة اللواء وجريدة الدفاع كلمة التقديم وأشارت اليها وإلى أهميتها كما نشرت بقية الجرائد العربية مقتطفات من هـذه الكلمة . ومن تلك اللحظة شعرت بأن صلاتى مع الجرائد العربية فى فلسطين قد دخلت عهداً جديداً من الثقة والتفاهم والتعاون . وأحاطنى الكثير من أهل الرأى بتشجيعهم وعطفهم.

وانى أنقل للقارى بعض ما جاء فى مقدمة هذه الكلمة لأنها من أثمن ما اعتز به فى حياتى :

قلت : لقد جاء الاسلام بدعوة عالمية ، نشرت بين الناس دينا وتعاليم وأفكارا ، جاء بدعوة نفخت فيهـــم روحا جديدة ، جعلتهم يلتمسون صلاح آخرتهم باصلاح دنياهم ، حينما أخذوا يتطلعون إلى حياة أرقى مما كانوا فيها ، حياة يطمئن اليها العقل ويرتاح اليها الايمان .

ولم تمض غير سنوات قليلة على أتباع هذه الدعوة وأنصارها، حتى أصبحوا قوة هائلة أخذت تفرض نفسها على جزء كبير من العالم المعروف وقتئذ .

فأثرت فى حركته وسيره وتطوره ، وبرزت قوة الاسلام فى تاريخ الانسانية واضحة ظاهرة لا يمكن اخفاؤها أو التقليل من شأنها .

ومنذ ذلك التاريخ لفتت هذه الدعوة الانظار، وأخذ الباحثون ينقبون عن منشأ هذه الحركة ، ويتعرفون أسباب نجاحها وانتشارها ومدى أثرها وسر بقائها إلى اليوم .

« والاسلام ككل حركة عالمية ، انقسم الناس فى الحكم عليه إلى فريقين : فريق يشمل أصدقاءه وأتباعه وأنصاره ومن أراد انصافه من غير أهله . والفريق الآخر يجمع الخصوم والأعداء أو الذين لم يجدوا فى أنفسهم ، ما يدفعهم إلى التعرف على محاسنه أو الاقرار ببراءته » .

« فمن أولى البديهيات أن نعمل على أن يتعرف غير المسلمين حقيقة هذه الدعوة ومراميها وأهدافها وما أحدثته هذه الرسالة من نتائج » .

« ومن أحق من أهله أن يحدث الناس عنه ؟ وأن يظهروا محاسنه ؟ وأن يزيلوا ما علق خطأ بأذهان الناس عنه ؟ نتيجة دعاية الافتراء عليه والتسليم بعدم انصافه .

لهذا كله لبيت هذه الدعوة ، وكان أمامى ثلاثة دوافع لو جاء واحد منها على انفراد لكان وحده كافيا للتشجيع إلى اجابتها من غير تردد أو توقف :

أولها ـ واجب الرجل المؤمن الذى لا يخشى إلا الله فى عمله وتصرفاته .

ثانيها ـ مكانة الأستاذ المحاضر ومقامه العلمى وثقتنا فيه.

ثالثها ـ ما أظهرته الجمعية بدعوتها لنا من التقدير للاسلام كدين من الأديان الكبرى ، فضربت لنا كما قلت مثلا لحرية الفكر وأظهرت نية طيبة ، ان أوسعت لنا صدرها لانصاف الاسلام فى دارها فيجب علينا أن نقابل هذه النية وأن نلبيها »

وأظن اننى قد عرضت بهذه المقدمة إلى أهم ما يدور بخلد كل فرد مسلم منصف ، وهنا رأيت ألا أتأخر بعد حديثى عن الاسلام أن أشير إلى تأكيد العلاقة القائمة بين مصر والأقطار العربية وفلسطين بصفة خاصة فأوضحت ما يجول بخاطرى بالكلمة الآتية :

لست بحاجة إلى تقديم الأستاذ إليكم ، فهو رجل معروف بعلمه وثقافته فى الأقطار العربية ؛ إذ هو فى طليعة المجاهدين فى خدمة الأدب العربى وبعثه . ولقد سبقته شهرته إلى هذه البلاد ككاتب ومؤلف وأستاذ فهو ليس إذن بحاجة إلى التعريف والتقديم »

« بل أقول أكثر من هذا : انى لا أشك لحظة واحدة بأن فى هذا الجمع كثيرين فى استطاعتهم أن يحدثونا عن علم الأستاذ وأثره ومؤلفاته بأسلوب وبيان أعجز عنهما » .

« ومع هذا فانى نظرت إلى هذا الحفل فاذا هو مكون من خيرة أفاضل الناس فى قطر عربى عزيز على قلب كل مصرى ، لأن أهله باختلاف نزعاتهم وأديانهم تربطهم بنا روابط لا انفصام لهـــا ولكن أعلاها وأسماها مع الزمن وحدة اللغة والتفكير والثقافة . لهذا شعرت بأننى لن أكون غريبا هنا. بل أننى سأجد بينكم ما يشجعنى على إلقاء هذه الكلمة وأنا واثق من أن شعوركم

معى وانه سيشفع لديكم إذا اختصرت فى ناحية أو تلعثم لسانى أمامكم مرة ومرتين . فالأستاذ أحمد أمين لا أقدمه كأستاذ مصرى فأعده ملكا للكنانة وحدها ، بل أقدمه إليكم كأديب عربى أدبه وعلمه من حق الناطقين بالعربية كافة . وأقول لكم إن ما أحرزه من نجاح وتوفيق نعده نحن معاشر المصريين نجاحا وتوفيقا للأدب العربى ونصراً للثقافة التى تجمعنا بكم وللفكر العربى الذى نشترك فيه ونتحدر منه ونعتز به ، وفى هذا أيها السادة ما يثبت أقدامى أمامكم ويجعلنى مطمئنا من أن الأستاذ المحاضر سيلقى من ترحيبكم ومودتكم فى القدس ما سبق أن أحيط به من ترحيب ومودة فى كل قاعة ألقى محاضرة فيها » .

ولقد كان يوسى أن أقف عند هذه الخاتمة لولا انى أردت أن أشير إلى مكانة فلسطين وما كنت أنتظره لها من مستقبل وما كانت تحيط بنا من غيوم متلبدة وقتئذ ، فأردت أن أتحدث عما يجول بأنفسنا من رغبة فى دفع موجة التشاؤم التى كانت سائدة وقلت ما يأتى :

« فى هذه البلاد المضيافة ، وعلى أرضها المقدسة للأديان المنزلة جميعاً : هنا حيث استلم الشرق هداية العالم يوما ما حينما ظهرت إلى العالم تعاليم معلم الناصرة عيسى بن مريم منذ ألفى عام؛ هنا حيث ينظر أتباع الديانات الكبرى إلى قدسية هذا المكان، هنا يحدثنا الأستاذ بحرية تامة عن الاسلام وأثره فى وقت كثر فيه عدد المتشائمين الذين يشكون فى عظمة هذا الشرق ومستقبله — أولئك الذين لم يلمسوا إلا آثار الجمود والتسليم ومظاهر الضعف والفقر البادية فى كل مكان فكأنهم لم يروا إلا ظلمات بعضها فوق بعض » .

« اننا نقول لهم كذلك كانت السنوات والعصور التى سبقت دعوة الاسلام كانت لياليها ظلماء لا أثر لنور الأمل فيها ، وكانت عوامل الفناء والتفكك تعمل فى كل مكان ، حتى لقد كان يخيل إلى من عاشوا فى القرن السادس الميلادى أن الشعوب الشرقية التى ورثت مدنيات مصر وقرطاجنة وآشور وبابل وفينيقيا ، قد شاخت وهرمت وفقدت شخصيتها وميزاتها وقوتها الدافعة فأصبحت فريسة مدنيات أقوى منها من صنع روما وبيزنطة ، ولكن هذه الشعوب نفسها التى غلبت على أمرها تراها وقد استحالت مرة واحدة ثمة فتية فكأنها بعثت بعثاً ونشرت نشراً . والفضل فى نهضتها لتعاليم الاسلام حين تحرر الشرق من جبروت روما وخرج للعالم بشخصيته واستقلاله الفكرى للعمل مرة أخرى كقوة عظيمة تزحف على العالم وتؤثر فى حركته وتاريخه وسيره وتطوره » .

« وها نحن اليوم نعانى نفس ما عاناه أسلافنا ، فهل لنا أن ننظر إلى ماضينا ، وإلى تلك دروسه لنتخذ من ذلك دعامة للمستقبل ولنتعرف القوى الكامنة فينا ليكتب لها الانطلاق والخلود؟ »

« على أى أساس اخترنا النهضتنا سواء كان ذلك فى نطاق القومية أو العالمية فاننا فى حاجة إلى بعث جديد وقوة معنوية تحركنا للعمل للوصول إلى حياة أعلى وأكمل وأعظم شأنا من ظروف الحياة التى نعيشها فى الوقت الحاضر » .

« اننا إذا أكتشفنا هذه القوى الكامنة فينا وعملنا على تركيزها وتنظيمها نكون جديرين بحمل الأمانة التى حملها الشرق من قبل وتسلم رسالته الخالدة ، ويصبح الشرق جزءاً هاماً واعياً مكملاً للانسانية المتنبهة المتيقظة العاملة فى بناء صرح مستقبل هذا العالم » .

هذه بعض فقرات من حديث تلك الليلة وهو حديث — كما قلت — تفضل رجال الفكر فى فلسطين بالترحيب به ، ونشرته أغلب الجرائد وأشارت إليه . ولقد كنت أود أن يشير حضرة صاحب العزة الأستاذ أحمد أمين بك إلى اشتراك القنصلية الملكية المصرية العامة فى القدس معه فى هذا الموقف الذى قال عنه « أنه كان عجيباحقاً مربكاحقاً » . فقد قرأت كتابه المعنون باسم « حياتى » ولفت نظرى صديق عزيز على هو الأستاذ محمد عبد الغنى حسن إلى حادث القدس وكيف أفرد له الأستاذ ثلاث صفحات من كتابه فلم يذكر كلمة واحدة عن الذين شاركوه فى هذا الموقف الذى كان فيه من العناء الشيء الكثير على حسب تعبيره . ولذا رأيت من واجبى أن أنشر هذه الصفحة المطوية ولا أجد ما أقوله سوى اننى وغيرى ممن ألقى عليهم واجب تمثيل مصر فى تلك الفترة لقوا فى أثناء قيامهم بواجباتهم الكثير من هذه المواقف : أذكر واحدا منها حينما أقمت حفلة للاستاذ اسد رستم بمناسبة اخراجه أول مجلد من كتاب « وثائق الشام » وكيف حملت بعض الجرائد على حملة مثل هذه فكان للقنصلية الملكية المصرية العامة ببيروت موقفا يشبه موقف فى القدس .

أحمد رمزى
مراقب عام مصلحة التشريع التجارى والملكية الصناعية